مسرحيات يوجين يونسكو

دونالد واطسون

استطاع يوجين يونسكو الكاتب المسرحي الفرنسي، الروماني الأصل، أن يثبت بما كتبه من مسرحيات الطليعة في السنوات العشر الأخيرة، أنه واحد من أبرز المسرحيين في عصرنا، وذلك لما أثارته من جدل عنيف بين النقاد وجمهور المسرح، ليس في فرنسا وحدها، وإنما في جميع البلاد التي مثلت فيها هذه المسرحيات من اليابان حتى الولايات المتحدة.

وقد بدأ يونسكو بداية كتاب الطليعة جميعًا، فكانت مسرحياته تمثل على مسرح جيب صغير في باريس يؤمها جمهور صغير من المشاهدين أحيانًا. ويرفضها النقاد في معظم الأحيان.

وكان من المناظر المألوفة في ذلك الوقت، أن ترى المشاهدين يتسللون إلى خارج المسرح بعد رفع الستار بقليل.

ولكن يونسكو سرعان ما كسب لنفسه عددا كبيرا من المؤيدين والتلاميذ، إذ أن المرء لا يمكن أن يتجاهل مسرحيات يونسكو أو ينصرف عنها إذا قدر له رؤيتها. رغم ما تحتوي عليه من غرابة شديدة، وهنا تكمن أصالته وقوته.

وهذه المجموعة هي الجزء الثاني من مسرحيات يونسكو، وتحتوي على ثلاثة مسرحيات هي "الساكن الجديد" و"آمديه" و"ضحايا الواجب"، ترجمها إلى الإنجليزية دونالد واطسون، وقدم لها بمقدمة قصيرة يتحدث فيها عن مسرح يونسكو وخصائصه.

ينبع مسرح يونسكو، كما يقول **واطسون** في مقدمته، من الوعي بأن الحياة اليومية العادية قد غيرت **طبيعتها**، فالأشياء التي نجدها في الحياة، واللغة التي نستخدمها تبدو أمام عيني يونسكو وهي تضمحل حتى تصبح نادرة من جانب، وهي تثري حتى تصبح مشبعة بالمعنى من جانب آخر. أما الجانب الأول فيجعلنا أميل إلى الهرب من الحياة، وأما الجانب الثاني فيأسرها في نطاقها. وكلا التجربتين أقوى دليل على أن عالمنا "الحقيقي" ليس حقيقيًا.

ولكي يوصل يونسكو تجربته هذه في شكل درامي، يبدأ مسرحياته بتقديم شخصيات مألوفة في عالم مألوف. وعادة ما يضع ذلك في البداية، في قالب مسرحي تقليدي، ثم يظهر ما هو غير مألوف أو غير معقول من بين ثنايا الصورة فجأة حتى يتفتت الشكل التقليدي ويختفي لنجد أنفسنا وجها لوجه أمام عالم غير منطقي، وإن كان يقوم على منطق خاص به، مزعج وغير مألوف. وكل العناصر التي يستخدمها في علاجه لمسرحياته، من القصة والموقف والشخصيات، ينعكس بعضها على بعض لكي تعكس مجتمعة توتر عالمه، ذلك العالم الذي نجد فيه المألوف وغير المألوف، ما هو منطقي وما هو غير منطقي جنبًا إلى جنب دون أن يسمح الكاتب بأي تجاوب بين هذه العناصر المتنافرة.

وقد نستطيع من خلال هذا الحديث النظري أن نكون فكرة واضحة عما يفعله يونسكو أو عما يفعله فرسان مسرح العبث(١)، ذلك أن هذا المسرح بعامة، ومسرح يوجين يونسكو بوجه خاص، يعتمد على العرض البصري المحض، أي على تقديم المتعة البصرية التي يتلقاها المشاهد على ما في النص من حوار قد يصل معنى محددا أو لا يصل.

وندلل على هذا القول بمسرحية "الساكن الجديد" إحدى مسرحيات هذه المجموعة. فالمسرحية تبدأ بأن يرفع الستار عن خشبة المسرح وقد خلت تمامًا من كل أثاث أو ديكور.. ثم تدخل مديرة المنزل، وهي امرأة عجوز لا ينص يونسكو على اسم لها، بل يكتفي بالإشارة إليها باسم "مديرة المنزل". وتأخذ في الغناء.

ثم يدخل رجل في منتصف العمر يشير إليه المؤلف باسم "السيد". ويجري حوار طبيعي عادي نعرف فيه أن "السيد" هو المستأجر الجديد للشقة الخالية، تلك التي نراها أمامنا على خشبة المسرح خالية من كل شيء عدا الجدران العارية.

ويستمر هذا الحوار التقليدي لمدة ثمان أو عشر دقائق حتى لنخال أنفسنا أمام مسرحية من مسرحيات إبسن أو أي كاتب آخر يلزم القواعد المألوفة في الدراما. ونجد أن مديرة المنزل العجوز امرأة ثرثارة إلى أبعد الحدود تتكلم بدون انقطاع في كل شيء دون أن يكون لحديثها معنى في أغلب ما تقول، والسيد يضيق بثرثرتها ولا يجيب عن أسئلتها المتلاحقة الكثيرة.. ولكننا نكتشف شيئًا فشيئًا أنها تحاول بحديثها الطويل محاولة يائسة أن توجد نوعا من العلاقة الإنسانية بينها وبين الساكن

الجديد.. فهي تسأله عن صحته وعما إذا كانت الرحلة إلى بيته الجديد قد أرهقته، وتحاول أن تشعره بأنها سترعاه وتقوم على خدمته بإخلاص وحب، ولكن السيد لا يترك لها الفرصة لكي تقيم أي نوع من العلاقات الإنسانية بينها وبينه، بل يعلن تبرمه الواضح منها ويأمرها ألا تتدخل في شئونه.. فتتخاذل المرأة قليلاً ثم تسأله في شبه ذل "إنني سأرعى شئونك وأكون لك كالخادمة.. أليس كذلك يا سيدي؟.. ولكن السيد يعلن لها أنه لن يحتاج إلى خدماتها بعد الآن. وتخرج المرأة كسيرة القلب وهي تقول: "إنهم يعدونك بكل ما في العالم، ثم يتخلون عن وعودهم".

وينقطع آخر خيط كان من الممكن أن يربط هذه المرأة العجوز بكل ما تحمله في صدرها من الحنان، بالساكن الجديد، ويبدأ المنطق الدرامي التقليدي المألوف في الاختفاء لحظة أن يدخل الحمال الأول والحمال الثاني يعلنان وصول العفش. وهنا يبزغ عنصر العبث من بين ثنايا هذه الصورة، إذ أن الحمالين يأخذان في نقل الأثاث من الخارج إلى خشبة المسرح قطعة قطعة، ويموج المسرح فجأة بحركة دافئة.. الحمال الأول والحمال الثاني رائحان غاديان وهما ينقلان قطع الأثاث إلى داخل المسرح

ويـضعانها بـلا نظـام إلى الـيمين وإلى اليـسار وإلى الأمـام وإلى الخلـف. والـساكن الجديـد يقـف في وسـط الحجـرة يلقـى إليهـا بالأوامر: ضع هذه القطعة هنا.. وهذه هناك.. هـذه هنـا وهـذه هناك..

ويظل الحمالان في حركتهما الدائبة هذه التي تزداد سرعتها ويتلاحق إيقاعها كلما اقتربنا من نهاية المسرحية، بينمـا يبـدو أن قطع الأثاث لا تنتهي، فكلمـا فرغـا مـن نقـل بعـضها يتبقـى عـدد كـبير مـا زال بالخـارج ولا بـد مـن نقلـه وتكديـسه داخـل الحجـرة. ويـسأل الـسيد: "أمـازال هنـاك أثـاث كـثير؟ ألم ينتـه بعد؟".

وقـد بـدت علـى وجهـه أمـارات الخـوف واضـحة، ويمـضي الحمالان في حمل قطع الأثاث المتزايدة بشكل غريب إلى الـداخل حتـى تمتلـئ الحجـرة عـن آخرهـا بالأثـاث المتراكـم دون نظـام، وحتى يدفن السيد تحت هذا الأثـاث فـلا يـراه المـشاهدون وإنمـا يسمعون صوته فقط.

ويقـول الحمـال الأول : "لقـد نقلنـا كـل شـيء، وأنـت الآن مستريح بالفعل".

ثم يسأل الحمال الأول : "أتريد شيئا؟".

ويكرر الحمال الثاني نفس السؤال، ونسمع صوت السيد بعد فترة صمت طويلة يقول: "أشكركم.. أطفئوا الأنوار".

ويسود المسرح ظلام تام ، ثم تهبط الستار.

ومثل هذه المسرحية تعتمد - كما سبق القول - على العرض البصري المحض، أي على مبدأ العرض Shaw الذي يذكرنا بما كان يقدم من قديم الزمان من عروض مسرحية تقوم أساسا على استمتاع المشاهد بما يراه على خشبة المسرح من حركة ورقص وغناء. وتبدأ الحركة في مسرحية "الساكن الجديد" في اكتساب هذا الشكل البصري منذ اللحظة التي يدخل فيها الحمالان إلى خشبة المسرح بعد ثمان أو عشر دقائق من بدء المسرحية وحتى النهاية عندما تطفأ الأنوار بعد أن يدفن الساكن الجديد تحت أثاث حجرته.

والمسرحية - مثلها مثل معظم مسرحيات يونسكو- تصدمنا بغرابتها وكأن المؤلف يريد أن يوجه إلينا صفعة شديدة مع هبوط الستار تجعلنا نفيق ونفكر، ولكن بعد انتهاء المسرحية دائما، فيما يمكن أن يحمله هذا العرض- الذي يبدو خاليا من المعنى- من معان.

وقد يختلف المشاهدون في تفسير هذه المسرحية وفيما يمكن أن يكون يونسكو قد قصد إليه منها، وقد يتساءل كل منا، من هو السيد؟ ومن هي مدبرة المنزل؟ ومن هما الحمالان؟ وماذا تمثل كل شخصية؟ إننا نجابه منذ الوهلة الأولى في المرحلة التقليدية، من هذه المسرحية وهي مرحلة الدقائق الأولى التي يجري فيها الحوار على النمط التقليدي بين السيد ومديرة المنزل، نجابه في هذه المرحلة بصراع عنيف واضح بين المرأة العجوز بكل ما تحمله في قلبها من حنان الأمومة وعطفها، والسيد بكل تبرمه بهذه المرأة ورفضه لحنانها ورعايتها دون إبداء الأسباب.

وتتم المفارقة عندما يتضح أن السيد يعامل المرأة على أنها خادمة تحاول الالتحاق بالعمل عنده لكي تكسب عيشها، بينما تنظر إليه هي على أنه ابن لها- طفل صغير وحيد يستحق الحدب والرعاية.

وعندما يأمرها السيد بالخروج، دون أن يقدم لها مبلغا من المال يصل الصراع والمفارقة معا إلى الذروة، إذ تحتج المرأة على هذا التصرف الجاف من جانب السيد، فتقول بصوت مرتفع وهي ترفض المال بينما نحس أن قلبها يتمزق من الألم: "لن

آخذ شيئًا على **الإطلاق**.. ماذا تظنني؟ أنا لست معدمة.. ليست غلطتي أنني لم أنجب **أطفالا**، العيب من زوجي، لو حدث ذلك لكان لدي الآن **أطفال** كبار.. أنا لا أريد نقودك".

ولكنها تأخذ المال وتتم المفارقة العجيبة ..

لقد قتل السيد الأم فيها ، بل وقتل كل ما كان يمكن أن يقوم بينهما من علاقة على مستوى إنساني، ولم يعد يربط بينهما سوى القيم المادية الخالصة، حتى لتتحول المرأة العطوف إلى خادمة حقيقية بكل ما في الكلمة من معنى فتقول له وهي تأخذ النقود: "هذا جميل منك يا سيدي" بالتأكيد! "ثم تردف "أمثالك لا يناسبونني".

لقد انقطع فعلا كل اتصال بين المرأة العجوز العاقر وبين السيد الذي حاولت محاولة يائسة أن تجعل منه من يعوضها عن سنين العقم الطويل.

وبعد ذلك تبدأ المأساة أو الملهاة لا ندري، عندما يدخل الحمالان ويبدآن في نقل الأثاث وتكديسه داخل الحجرة في حركات ميكانيكية متتابعة، والسيد يقف في وسط الحجرة يأمرهما في ميكانيكية واضحة "ضع هذا هنا.. وهذه هناك..

هنا.. هناك.. هنا.. هناك.. هناك.. هنـاك" حتـى لكأننـا نـسمع صوت آلة تدور وتدور ويظل صوتها يعلو شيئا فـشيئا وفي واقـع مخيف إلى أن يتـم الحمالان نقل جميع قطع الأثـاث فـإذا بالـسيد مدفون تحت أثاثه في حجرته الجديدة، أو تحـت مـا يمتلكـه هـو وما جنت يداه.

ويتخذ الحمالان في أذهاننا صورة جلادين يحملان الـسيد إلى مصيره المحتوم ، ويسألانه قبـل أن يطفئـا النـور.. نـور الحجـرة ونور حياته معا، عما إذا كان يطلب شيئا قبل اللحظـة الفاصـلة فيسألهما في استسلام عجيب أن يطفئا النور.

ولا أدري لماذا تستدعي هذه الصورة إلى ذهـني صـورة أخـرى لبطل رواية كافكا "المحاكمة"(١) جوزيف ك. الـذي فـوجئ يومـا باثنين من المحققين يدخلان عليه حجرته ويقتادانه إلى قاعـة محكمة بتهمة ارتكابه لجريمة لا يـدري عنهـا شـيئا، ثـم يحـاكم وتقرر المحكمة إعدامه، ويـذبح بالفعـل في عـرض الطريـق دون أن يدري شيئا عن السبب الذي حوكم مـن أجلـه أو عـن الـسبب الذي يموت من أجله .

إلا أن حرص يونسكو على ألا يعطي شخصياته أسماء معينـة يثـري المـسرحية برمزيـة جميلـة، لكأنمـا أراد أن يكـون الـسيد

صورة للإنسان كمطلق في الحضارة الغربية الحديثة، يقتل نفسه بما يمتلكه من أثاث، بما يمتلكه من قيم الحضارة المادية، فإذا بهذه القيم تتراكم على رأسه حتى يدفن فيه الإنسان بكل ما له من قيم إنسانية وعواطف إنسانية في ماضيه الذهبي.

ولكن أي تفسير مهما اقترب من المسرحية لا يضيف إليها شيئا، بل تظل المسرحية أروع تفسير لنفسها بما فيها من جمال غريب يشد انتباهنا من لحظة ارتفاع الستار حتى النهاية دون أن يترك لنا المؤلف أثناء مشاهدتنا للمسرحية، الفرصة لكي "نتعقل" ما يجري أمامنا على خشبة المسرح.

ولعل أهم ما يثير الانتباه في مسرحية يونسكو هذه هو ذلك الشكل الغريب الذي لم نألفه في المسرح التقليدي القائم على القواعد الدرامية الأرسطية المتعارف عليها منذ المسرح الإغريقي حتى الآن.. ولقد أتاح لنا يونسكو أن نتعرف على جانب كبير من آرائه في المسرح التقليدي الأرسطي، كما أتاح لنا أن نعرف ما يهدف إليه من الشكل الجديد الذي يكتب فيه مسرحياته، أتاح لنا أن نعرف ذلك من داخل حوار مسرحيته "ضحايا الواجب" إحدى مسرحيات هذه المجموعة.

يرفع الستار في مسرحية "ضحايا الواجب" عن زوج (شوبير) وزوجته (مادلين) من أبناء الطبقة الوسطى، يجلسان في أفنية منزلهم، ويبدو أن الملل يخيم عليهما، فالزوج يقرأ في جريدته، بينما ترتق الزوجة بعض الجوارب. وتسأل الزوجة زوجها: "أية أخبار في الجريدة؟".

فيجيب : لم يحدث شيء على الإطلاق.. فيما عدا الحوادث العادية التي نسمع عنها كل يوم والتي مللنا الحديث عنها. ثم يجري الحوار التقليدي نفسه الذي يبدأ به يونسكو كل مسرحية من مسرحياته.. يتحدث الزوجان في أمر جيرانهم الذين وقعت عليهم غرامة بسبب كلبهم الذي بال على إفريز الطريق ويتناقش الزوجان في هذا الحادث التافه، ويدخل مفتش بوليس شاب يسأل عن شخص اسمه "مالو.. ويحاول (شوبير) معاونته.. وفجأة ينقلب مفتش البوليس إلى طاغية يأمر شوبير أن يغوص في أعماق نفسه وذكرياته ليجد "مالو".

ويظل شوبير ينقب في ذاكرته ويرحل رحلة عجيبة في خبايا نفسه المليئة بالأسرار.. بينما يشتد طغيان مفتش البوليس كلما فقد شوبير الأمل في أن يعثر على مالو بين ظلمات ذكرياته.. وتنتهي المسرحية بالفشل في العثور على مالو

بعد أن يتحول شوبير إلى لعبة في يد مفتش البوليس الذي وضعه وجها لوجه أمام الماضي وأفقده كل أمل في المستقبل.

قلنا إن يونسكو يعرض في هذه المسرحية رأيه في المسرح التقليدي وآماله في المسرح الطليعي فيجري حوارًا على لسان أبطاله في أول المسرحية وآخرها، في الجزء الأول من المسرحية يسأل شوبير زوجته فجأة:

شوبير: "ما رأيك في المسرح الحديث، ما آراؤك في الدراما؟".

مادلين: آه منك ومن مسرحك. إنه يملك عليك حياتك وقريبا تتحول إلى حالة مرضية.

شوبير: هل تظنين حقا أنه من الممكن أن نعمل شيئا جديدا في المسرح؟

مادلين: قلت لك الآن لا جديد تحت الشمس، حتى لو كان هناك أي جديد.

شوبير: أنت على حق، نعم، أنت على حق، كل ما كتب من مسرحيات منذ عهد الإغريق القدماء حتى يومنا هذا، لم تكن سوى مسرحيات بوليسية. ولقد كانت الدراما واقعية دائما وكان هناك محقق على الدوام وكل مسرحية هي عبارة عن

تحقيق يصل إلى نهاية ناجحة. هناك لغز يحل من المشهد الآخر وأحيانا قبل ذلك تبحث ثم تجد. ومن الممكن أن تصرف النظر عن هذه اللعبة منذ البداية.

مادلين : يجب أن نضرب مثلاً.

شوبير : كنت دائما أفكر في مسرحية من مسرحيات المعجزات(١) موضوعها امرأة أنقذتها سيدتنا مريم من أن تحرق حية. فإذا تجاهلنا الجانب الديني من المسرحية، الذي لا علاقة له بالموضوع في حقيقة الأمر، وجدنا أن ما تبقى ليس سوى قصة كتلك التي تنشر عادة في الصحف، عن امرأة قتل زوج ابنتها على يد اثنين من القتلة المحترفين لأسباب غير مذكورة.

مادلين : ولا يمكن ذكرها.

شوبير : ويصل البوليس ويعقد تحقيقًا عن القاتل، موضوع بوليسي ودراما طبيعية تصلح لمسرح أنطون.

مادلين : هذا حق ..

شوبير : تصوري ، لم يحدث في المسرح أبدا أي تطور كبير.

مادلين : شيء مؤسف .

شوبير: أترين.. المسرح عبارة عن لغز، واللغز يحتم وجود القصة البوليسية.. كان الحال دائما على هذا المنوال.

مادلين: وماذا عن الروائع..

شوبير: دراما بوليسية راقية.

تلك هي آراء يونسكو في الشكل المسرحي التقليدي.. مجرد قصص بوليسية تحتوي على لغز يجري تحقيق لمعرفة كنهه ثم حله في المشهد الأخير. كيف يتطور المسرح إذن في رأي يونسكو؟

إنه يجيب عن السؤال نفسه في آخر المسرحية على لسان شخصية أخرى من شخصياته هي نيكولاس في حديثه مع مفتش البوليس، الشخصية الرئيسية في مسرحية "ضحايا الواجب". يقول نيكولاس:

نيكولاس: لقد فكرت طويلا في فرص إصلاح المسرح، هل يمكن أن يوجد جديد في المسرح؟ ماذا تظن يا سيدي المفتش؟

المفتش: .. لا أفهم السؤال..

نيكولاس: إن مسرح أحلامي سيكون قائما على اللامعقول(١).

المفتش: تعني.. ليس أرسطوطاليسيا.

نيكولاس: بالضبط.

وبعد حديث قصير، يعود نيكولاس إلى حديث المسرح.

نيكولاس: إن المسرح المعاصر مازال في حقيقة الأمر سجينا لأشكال انتهى عهدها.

ثم يعود فيقول:

نيكولاس: أترى يا صديقي العزيز، أن المسرح المعاصر لا يعكس النمط الحضاري في عصرنا، ولا يتفق والاتجاه العام لمظاهر روح العصر الحديث.

ثم يعود فيقول :

إنه من الجوهري على أية حال ألا نعمي عن المنطق الجديد، وما ساهم به نوع جديد من الإحساس، الإحساس القائم على العداء.

المفتش : مسرح سيريالي ؟

نيكولاس : بقدر ما تعبر السريالية عن الحلم .

المفتش : الحلم ؟

نيكولاس : يلهمني بمنطق مختلف وإحساس مختلف، يجب أن نقدم متناقضات حيث لا يوجد متناقضات، ولا نقدم متناقضات حيث يوجد ما يسميه الذوق السليم بالمتناقضات. سنتخلص من مبدأ الشخصية ووحدة الشخصية ليحل محلها الحركة والإحساس المتحرك. نحن لسنا أنفسنا. الشخصية لا توجد، وإنما توجد بداخلنا دوافع إما متناقضة أو غير متناقضة.

ويمضي نيكولاس :

إن الشخصيات تفقد شكلها في تطورها الذي يخلو من الشكل، وكل شخصية ليست نفسها بقدر ما هي شخصية أخرى.

المفتش : إذن فمن المحتمل أن تكون شخصية أخرى غير نفسها.

نيكولاس : هذا واضح، أما بالنسبة للحبكة والدوافع الدرامية فلا تدعنا نذكرها. إذ يجب علينا أن نتجاهلها تماما على الأقل في شكلها القديم الذي كان ساذجا للغاية وواضحا للغاية وزائفا للغاية كأي شيء شديد الوضوح، كفانا دراما

وكفانا تراجيديا. إن ما هو تراجيدي يتحول إلى كوميديا وما هو كوميدي يتحول إلى تراجيدي.

هذا هو رأي يونسكو الصريح في مشكلات المسرح الحديث.. إنه يرى أن المسرح التقليدي لم يعد يفي بحاجة الحضارة الحديثة ولم يعد يتفق والحساسية الفنية في هذا العصر، وهو يحلم مع شخصياته بمسرح يقوم على اللامعقول لا مكان فيه للألوان التقليدية المحددة، وإنما تختلط فيه الألوان بعضها ببعض لتكشف عن التناقض حيث لا يبدو أن هناك تناقضا، وتكشف عن التناقض حيث يبدو أن هناك تناقضا لينتج عن هذا كله إحساس جديد بالدهشة هو أول ما نحس به إزاء أي مسرحية من مسرحيات يونسكو. وهي ليست دهشة فقط وإنما شيء شبيه بالصفعة التي تثير تفكيرنا وتلهب خيالنا إلى أبعد الحدود.

obeikandl.com